نخلة جرجس زريق (١)

(٢)

بينا كانت سوريا تتمرن على الحياة الجديدة . بينا كانت حافلة بالمدارس والمطابع والمكاتب . بينا كان ابطالها يعملون على النهوض بها الى الذروة العليا كانت فلسطين لا تزال مستغرقة في سباتها العميق بل كانت حالتها اشبه بحالة المحتضر. فجاءها الاستاذ فكان ابا نهضتها ورسول الحياة اليها . جاءها وهو من غلواء الشباب وغضاضة الاهاب كالجبل الاشمّ . قويّ البنية وثيق التركيب سبط القوام عريض المنكبين بارزّ الصدر اغرّ الطلعة وضاح الجبين تلوح على وجههِ علائم العظمة والشجاعة والرواء . انيقّ الثوب لا يلبس الاّ الجيد الغالي. لا تقع العين عليهِ الاّ تفخمتهُ كأنهُ محفوف بموكب من الجلال والوقار وتهيبتهُ كأنّ في اثوابهِ اسداً مزيراً اذا مشى جمع نفسهُ في صدرهِ كأنهُ يهمّ بالوثوب او يتهيأ للصراع . فكان نزولهُ في فلسطين نزول الشاب على الشيخوخة. وقد نهكهُ المرض بعد ذلك فعاش ما عاش مهزولاً ولكن لم يستطع المرض او الهزال بل الموت نفسهُ أن يذهب بذلك الجلال والوقار او ينال شيئاً من تلك العظمة والهيبة. ومن رآهُ يوم مصرعهِ لم يرَ الاّ العظمة في جنازة . . . فاين هو من اولئك الذين اذا تصفحت وجوههم ونظرت اليهم كيف يروحون ويجيئون رأيت الوجوه ذابلة شاحبة والصدور داخلة والظهور منحدبة والاجسام اما مهزولة من فشاشة العيش او مترهلة من سمن او علة . ورأيت الواقف يكاد يتساقط من الاعياء فيتلمس جداراً او مقعداً يلقي بثقلهِ عليهِ . رأيت الماشي يجرّ نفسهُ جرّاً كأنهُ يحمل جندلاً او حديداً ولا يمشي بضع خطى الاّ وقف يتنفس الصعداء . . . ألا ان اولئك رجرجةٌ يغلون الاسعار ويضيقون الاسواق ويكدّرون المياه كما قال خالد بن صفوان

***

لانهاض الامم من كبواتها طرق وذرائع كثيرة ولكن اهم تلك الطرق وآكد تلك الذرائع هي المدرسة . . . هل كان ينتظر من الحكومة التركية في ذلك العهد

(١) بقية خطبة القاها الاستاذ خليل السكاكيني في القدس تأبينا لاستاذه المرحوم صاحب الترجمة في حفلة الاربعين في سبتمبر الماضي

وقد كانت في أسوإ حال ان يكون لها في فلسطين مدارس راقية ومدارسها في عاصمة ملكها لم يكن لها من شبه المدارس الّا القشور والالياف ؟ هل كان ينتظر من رؤساء الدين وكلهم اجانب لا يعرفون حاجات البلاد ولم يجيئوا اليها الّا لغرض ديني ان يؤسسوا في بلادنا مدارس مثل مدارسهم في بلادهم تلتقي حاجاتنا بقضائها ؟ بل هل كان ينتظر من الامة وهي جاهلة خاملة أن تنشط لان تحك جلدها بظفرها وتتولى بنفسها جميع امرها ؟ بل لو حاولت ذلك لمنعتهُ لان امر التعليم كان محصوراً في يد الحكومة ورؤساء الدين . لا لم يكن في الامكان ان يكون في البلاد مدارس غير مدارس الحكومة والمدارس الطائفية فعلى الامة ان ترضى بها وتكون من القانعين الشاكرين . ولم يكن لمن تنزع بهِ همتهُ وتتقاضاهُ ذمتهُ ان يخدم بلادهُ الّا ان يلجأ الى احدى تلك المدارس يعلم كما يراد منهُ لا كما يريد هو . وكما يحتاج رؤساؤهُ لا كما تحتاج بلادهُ

وكان للمدارس الطائفية صفتان الاولى انها كانت اجنبية وقل بين رؤسائها من عرف حاجتنا واهتم بقضائها ولذلك قلت العناية فيها بلغتنا وانماء عواطفنا الوطنية وان افادت البلاد من جهة اخرى مما نجمل الثناء عليهِ . والثانية انها دينية وكان المفهوم من الدين في ذلك العهد التحزّن والكآبة والزهد في الحياة وترك العمل وقمع النفس والرضى من الدنيا بالنصيب الاخس . فكان ضررها من الجهتين من جهة كونها اجنبية ومن جهة كونها دينية . ولم يكن شيء أضرّ على البلاد بازاء ذلك من كثيرين من المعلمين الصعاليك (ولا يزال منهم كثيرون الى عهدنا لسوء الحظ) الذين لم يتعاطوا صناعة التعليم الّا لانهم كانوا عاجزين عن عمل آخر ولم يدخلوا فيها ويتبوأوا كراسيها الّا بالرجاء والالتماس وتقبيل الاذيال ولم يهمهم الّا ارضاء رؤسائهم ومشايعتهم في كل ما يريدون . بل منهم من كان اشد اجنبيةً عن البلاد من الاجانب انفسهم ولم يعرفوا من صناعة التعليم الّا تصغير النفس وتخدير الحس وقتل النشاط والذكاء

هذه كانت حالة المدارس على الاجمال . ولعلّ ارقى مدرسة في ذلك العهد واشبهها بمدرسة وطنية هي مدرسة المرسلين الانكليز في القدس التي كانت تدعى «مدرسة الشبان» وقد كانت كدار معلمين يتخرج فيها اساتذة للمدارس الابتدائية الانكليزية في فلسطين . كانت هذه المدرسة تعلم العربية ولكن العربية النصرانية

اي لغة التوراة والانجيل لا لغة القرآن والادب العربي وقد قيل بسبب ذلك « أبت اللغة العربية ان تتنصَّر » وكانت التربية فيها دينية وكما كان التلميذ فيها ناكس البصر متطأطيء الهامة كاسف البال هائم اللب نادماً خائفاً كان اقرب الى الدين واميل الى الروحيات على حسب ما كان يفهم من الدين في ذلك العصر عند المسيحيين وغيرهم . ولا تزال آثار ذلك العهد الى الآن اذ لا يزال رجال الدين والمتدينون من مسيحيين وغيرهم يلبسون السواد ويمغون لحاهم كأنهم في حداد دائم لا يمشون الاَّ وئيداً وعلى وجوههم علائم القلق والهم والكآبة كأن الضحك والسرور والنشاط وسرعة الحركة وعلو الهمة وسعة الآمال والتشبث بالحياة والاقبال عليها والاغتباط بها من الكبائر . على خلاف ما نراهُ في الغرب فان رجال الدين هناك يعيشون مع الناس كالناس يأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون ويعنون بجمالهم وشبابهم لا يلبسون الاَّ آنق الثياب واجملها واذا لم يكونوا كذلك لم يقم لهم احدٌ وزناً

يقال ان جماعة في بلاد الانكليز طلبوا من رآسة الكنيسة ان تستبدل قسيسهم بآخر فقالت الرآسة ولماذا وهو قسيس عالم فاضل مجتهد نشيط . فقالوا نعم ولكنهُ لا يصلح ان يكون "Goal Keeper" اي حامي الدمار في لعبة كرة القدم . وهذا الفرق بيننا وبينهم من جملة الاسباب في قوتهم وضعفنا . ومن العجب ان رجال الدين من الاجانب لا يجيئون الى بلادنا الاَّ اخذتهم العدوى فلا يخالطون الناس الاَّ قليلاً ولا يعظون الاَّ تقريعاً وتوبيخاً ولنا في هذا الموضوع كلام كثير نجتزيء منهُ بما تقدم ولم نذكرهُ الاَّ استطراداً . لنعد الى موضوعنا .

كانت مدرسة الشبان كما ذكرنا . وانت ترى انها كانت خصوصية لا يؤمها الاَّ عدد قليل من التلاميذ ممن يقع عليهم اختيار المرسلين وكانوا يراعون في اختيارهم ميلهم الى الروحيات قبل كل شيء . ومع ذلك فقد اخرجت من الاساتذة والقسوس من خدموا البلاد بامانة واخلاص . وقد اتفق ان احتاجت هذه المدرسة الى استاذ وكان استاذنا المحبوب يومئذٍ في عكاء موضع اعجاب واحترام لسعة علمهِ وتضلعهِ من فنون الادب وتفوقهِ في الاخلاق الفاضلة والكمالات الانسانية فوقع الاختيار عليهِ فجاء وتولى التعليم فيها وفي الكلية الانكليزية بعدها الى ان استوفى انفاسه وفي المدرستين المذكورتين ظهرت بطولتهُ

لم يكن بطلاً لانهُ كان واسع العلم نافذ البصيرة خبيراً بصناعة التعليم او لانهُ كان ثقة الثقات وثبت الاثبات في علوم اللغة العربية واحكامها وآدابها بصيراً بمذاهب الكلام عليماً بمواضع النقد جيد الملكة لسناً مفوهاً فان ذلك وان كانت لا تجهل قيمتهُ وكان فيهِ منقطع النظير على خلاف القول « ابت اللغة العربية ان تتنصر » الاَّ انهُ ليس مما يصير بهِ البطل بطلاً . . ولكنهُ كان بطلاً لانهُ وهو القادر لو احبَّ الشهرة او الثروة او النفوذ وعلوَّ المكانة ان ينال من ذلك ما يريد من باب آخر غير التعليم . اذ لو عكف على التأليف لكان بالقياس الى ما عرفنا من حدة جنانهِ ونفاذ بصيرتهِ وعلو همتهِ وسعة اختيارهِ وغزارة مادَّتهِ من كبار المؤلفين . او لو اشتغل بالصحافة لكان لهُ من بديع الانشاء وصحة الديباجة ورشاقة الاسلوب وذكاء القلب ما يبوّئهُ بين ارباب الصحافة مكاناً سنياً . او لو اشتغل بالمحاماة لكان لهُ من بلاغة المنطق وقوة العارضة وسرعة الخاطر ومتانة الحجة وبعد النظر والاستقامة والامانة ما يؤيد بهِ الحق ولو كان خفياً ويلوي عنق الباطل ولو كان قوياً ويجعلهُ موضع ثقة الناس فلا يذهبون الاَّ اليهِ ولا يعتمدون الاَّ عليهِ . او لو اشتغل بالتجارة لكان لهُ من حنكتهِ ودربتهِ وجدهِ ونشاطهِ ما يعالتهُ على النجاح الباهر . مع ذلك ومع ان صناعة التعليم كانت ولا تزال محتقرة ممقوتة ودخل اكبر استاذ فيها لا يسمن ولا يغني من جوع ولا يسد من عوز . مع كل ذلك آثر ان يكون معلماً وانفق شبابهُ وصحتهُ بل امتنع عن الزواج في سبيل خدمة بلادهِ . ولم يستطع هذا العالم باباطيلهِ النارقة وسراتهِ الواطئة ان يشغل قلبهُ ويصرفهُ عن اداء هذا الواجب ولو لم يكن لهُ الاَّ هذا لكان حقيقاً ان يكون بهِ بطلاً عظيماً

كان بطلاً لانهُ عاش كما علم شريفاً حرّاً صحيح المبدإ عالي الاخلاق طاهر القلب نقيَّ العرض ناصع الجبين تقياً ورعاً في زمانٍ امتهنت فيهِ الفضيلة وغيبت معالم البر بل تقرحت فيهِ كبد الدنيا فلا تنزُّ الاَّ خبثاً وفساداً . كان بطلاً لانهُ استطاع بنفوذهِ الادبيّ وشخصيتهِ الراقية ان يجعل من تلك المدرسة الاجنبية مدرسة وطنية تخرج مبشرين بالوطنية كما كانت تخرج مبشرين بالدين . كان بطلاً لانهُ استطاع ان يبث في تلاميذهِ روحاً عالية على حين كان يقصد بالتعليم قتل الحياة . وما كان احراهُ ان يعظم فضلهُ على البلاد لو كانت المدرسة لهُ او للامة يتصرف بها كما يشاء ويجري فيها على ما تنزع اليهِ همتهُ وتتطلبهُ نفسهُ

الكبيرة ووطنيته الصادقة . بل كان بطلاً في مماتهِ اذ وقف كتبهُ الثمينة المختارة على الكلية الانكليزية وكل ما يملك كثيراً او قليلاً على خدمة العلم

هذا هو البطل الذي احتفلنا اليوم لتكريمهِ وما احرانا باستعظام الخطب فيهِ لاننا خسرناهُ في حين ان البلاد في اشد الاحتياج اليهِ. وسيظل مكانهُ بيننا خالياً فارغاً الى ان يجود الزمان بمثلهِ وان الزمان بمثلهِ لضنين

التسمم الذاتي

بواسطة الفم والحلق

لا يمرّ بنا يوم الاّ ونسمع فيهِ ان فلاناً مريض بعلة حقيت على فطن الاطباء او انهُ مات دون ان يهتدي الاطباء الى سبب موتهِ او ان الاطباء ذهبوا في سبب مرضهِ او موتهِ مذاهب مختلفة. ففي مثل هذه الحال يلوم الناس الاطباء اويرمونهم بالعجز والتقصير . ولكن لو عرف هؤلاء اللاعنون كيفية تركيب الجسم وتأثير الوراثة فيهِ وطرق المعيشة المتنوعة ونوع الغذاء الذي نأكلهُ والوسط الذي نعيش فيهِ لعذروا الاطباء . لاننا بينما نرى زيداً يسمن ويتقوى على اكل البيض او اللحم نرى عمراً يضعف او يتسمم من اكلهما . واذا افاد الهواء البارد عشرة اشخاص فلا بدّ ان يؤذي واحداً كما اننا نرى البعض من الذين يعودون من اعالي السودان في صحة جيدة كانهم عائدون من اعالي لبنان ونرى آخرين مهزولين ضعفاء او مصابين بمرض ان لم يكن باكثر. قد يعود طبيب مريضاً جنّ في عنفوان الشباب وبعد فحصهِ جيداً لا يجد سبباً لجنونهِ لان الجنون مرض كباقي الامراض ولكل مرض سبب ولو ان كثيراً من اسباب الامراض لم تعرف الى الآن . فكيف يمكن الطبيب اذاً ان يعرف ان جنون مريضهِ مسبب عن ضرس عقل لم ينبت بعد بل لا يزال داخل الفك يضغط على العصب ويهيجهُ . هذه حقائق تنبه لها الاطباء في السنين الاخيرة فرأوا من الضرورة ان يفحصوا كل عضو من اعضاء المريض بمفردهِ نظراً لشدة ارتباطها بعضها ببعض ولعلمهم ان ما يؤذي العضو الواحد يؤذي سائر الاعضاء . على ان اهمّ ما تنبهت اليهِ الافكار في هذه الايام هي مسئلة الاسنان بعد ان كانت مهملة جدّ الاهمال وذلك لان الناس كانوا الى